الفصل الثامن عشر

تصدير الحضارة الأوروبية

الوسائل التى تقدم الحديث عنها ، التى سلكتها أوروبا فى مواجهة الإسلام ، أشبه ما تكون بعمليات التفريغ والتخلية . أو هى وسائل لوسائل أخرى أشد ضراوة فى المواجهة ، وأبعد أثراً فى مزاحمة الإسلام وتحجيم تحركاته . ومن البدائه المعروفة فى الطبائع البشرية أن النفس إذا ألفت شيئاً ، وطالت عِشرتها له . فإن من الصعب تحولها عنه ، وإذا أريد تحولها عنه فلا يكفى فى إنجاح المسعى أن تجتهد فى تحويل النفس عما ألفت وعاشرت دون أن يكون لديك بديل تزينه لها ، وتصرفها إليه . وهذا البديل إن كان أحط قدراً عند النفس مما هى به آلفة ، فإن احتمال النجاح يكون ضعيفاً جداً أو منعدماً فى صرفها عما آلفت وإقبالها على ما تدعوها إليه ، وإن كان البديل مساوياً للمألوف عندها قوى احتمال النجاح ولكنه معرَّض - إذا تحقق - للانتكاس والارتداد عنه ، أما إذا كان البديل أسمى قدراً ، وأكثر بروقاً مما ألفته النفس فإن أسهم النجاح ترتفع ، واحتمالاته تقوى وتزيد وبقاءه يكون أكيداً .

وهذا المنهج هو الذى طبقته أوروبا فى صرف الإسلام عن المسلمين ، وصرف المسلمين عن الإسلام . فهى لم تقل : اتركوا إسلامكم وكفى ، ولكنها لوَّحت لنا بالبدائل المغرية ، حتى لا نعيش فى فراغ بعد انصرافنا عن الإسلام ثم يعاودنا الحنين إليه مرة أخرى ، وتلك البدائل هى الحضارة الأوروبية ، هى - أعنى أوروبا - فيما تُقدِّم من وسائل واجهت بها الإسلام كانت تقوم بعمليات التفريغ .

أما فى هذه الوسيلة - أعنى تصدير الحضارة الأوروبية إلى بلاد الإسلام - فإن أوروبا تقوم بعمليات الملء : ملء الفراغ الذى توقعت - وقد وقع فعلاً - حدوثه فى المجتمعات الإسلامية وهى قبل تصدير حضاراتها إلينا قامت بالترويج لها وتزيينها فى نفوسنا بشتّى الطرق ، ليكون البديل لنا عن الإسلام أسمى قدراً ، وأكثر بروقاً ، وأدنى قطوفاً ، وأحلى مذاقاً ؟! وقد بذلت أوروبا - وما تزال تبذل - جهوداً مضنية ، وأنفقت - وما تزال تنفق - ثروات باهظة ، ودفعت - وما تزال تدفع - أثماناً غالية ، من أجل تصدير حضارتها إلينا ، وترسيخ أقدامها فى حياتنا .

وقد ساعدها على تسهيل هذه المهمة : تقدمها المادى وتفوقها فى التكنولوچيا والعلوم الحديثة . وغزو منتجاتها المادية كل مرافق حياتنا ، وكل صغيرة وكبيرة من ممارساتنا اليومية

● معابر تصدير الحضارة الأوروبية :

استخدمت أوروبا فى تصدير حضارتها للعالَم الإسلامى عدة معابر ، أبرزها - فيما نرى - ما يأتى :

* البعثات إلى أوروبا لتلقى العلم فى معاهدها . والبعثات من أوروبا للبلاد الإسلامية بقصد التعاون فى أى فرع من فروع النشاط والشئون العامة فى البلاد الإسلامية .

* دور التربية والتعليم التى أنشأتها أوروبا ممثلة فى بعض دولها فى بلاد العالَم الإسلامى وبخاصة بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا ثم إيطاليا .

* القوانين والتشريعات التى صدّرتها أوروبا للعالَم الإسلامى .

* مجالات الثقافة والفنون والآداب والسياحة المتبادلة بين الطرفين .

* المؤتمرات المشتركة ، ذات التخطيط الدقيق والديبلوماسية البارعة ، ومنها الندوات التى تُعقد فى البلاد الإسلامية .

* البث الإعلامى ، وهو أحدث تلك المعابر وأشدها خطراً وآثاره الضارة آخذة فى النمو والازدياد .

* * *

● **إيضاحات موجزة :**

ونسوق فيما يأتى إيضاحات موجزة تؤكد للقارىء صواب ما أشرنا إليه .

* البعثات :

كان نظام الابتعاث إلى الخارج سلاحاً ذا حدين . فطلب الحكمة أو المعرفة سمة من سمات المؤمن أياً كان مصدر الحكمة أو المعرفة ، والعلم - كما قالوا - لا وطن له بل هو لغة عالَمية مشاعة بين جميع الأمم والشعوب ، ولكن الذى ينبغى أن نعرفه أن العلم الذى هو لغة مشاعة بين جميع الأمم والشعوب شئ ، والثقافة شئ آخر ، ذاك عام وهذه خاصة . وكانت حاجة العالَم الإسلامى - وما تزال - إلى العلم الذى ترقى به الحياة وتتقدم - كانت حاجته وما تزال إلى العلم من أهم الحاجات وأولاها بالطلب والعناية . أما الثقافة فهى ذوق خاص ومذهب فى الحياة محكومة بقيم أخلاقية ، وللعالَم الإسلامى ثقافة مميزة مهذبة ، توجهها قِيَم الدين وتوظفها لما يحقق المقاصد الحسنة النبيلة . فهى سلوك عام وخاص للجماعة المسلمة والأفراد المسلمين ، العالَم الإسلامى فى حاجة إلى العلم فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والنظم الإدارية وفى طرائق الإنتاج والتخزين والتسويق ورعاية الصحة الجسمية والنفسية ووضع الخطط ومراقبتها وبناء الجيوش وتدريبها وتنظيمها ، وبعبارة جامعة : نحن فى حاجة إلى كل ما يرقى بنا فى الحياة محكوماً بالقِيَم الأخلاقية التى أقرها ديننا الحنيف ، والابتعاث إلى أوروبا وغيرها لهذه الأهداف أمر مشروع لأننا فى حاجة إليه .

ومن الجدير بالذكر أن نشأة نظام الابتعاث إلى الخارج فى عهد محمد على لم يكن المقصود منه استيراد المبادىء والقيم الخُلُقية والسلوكية ؛ بل كان مقصد

محمد على منه تعلم العلم النافع فى شئون الحياة وإدارتها . ومما يُذكر فى هذا الصدد أن محمد على كان يفرِّق تماماً بين الأمرين : العلم الذى هو لغة مشتركة بين جميع الأمم والشعوب ، والثقافة التى تعنى الحياة على نحو ما ، ثم السلوك فيها على هَدى من ذلك الفهم ، لذلك فإن البعثات الطلاَّبية التى بعث بها إلى فرنسا كانت موضوعة تحت مراقبة دقيقة لتصرفات أعضاء البعثة ، وقد استأذن بعض الطلاَّب المبعوثين محمد على ليأذن لهم بالتجول فى مدينة باريس فرفض رفضاً قاطعاً هذا الطلب لأنه كان يعرف أنماط الحياة فى باريس ، وهو لم يبعث الطلاَّب ليتخلقوا بأخلاق الفرنسيين ، وإنما بعثهم لغرض شريف غير ضار هو العلم المفيد فى ترقية البلاد ونهضتها ؟!

ولكن طول معاشرة المبعوثين للفرنسيين ، ومع التحفظ الذى ألمحنا إليه ، ترك فى نفوس المبعوثين آثاراً شديدة الخطر ، ولنضرب لذلك مثلاً هو :

● رفاعة الطهطاوى :

ذهب الطهطاوى إلى فرنسا على رأس فريق من المبعوثين ، وكان رفاعة إماماً لهم فى دار الابتعاث ، وظل بفرنسا خمس سنين طالباً للعلم ، وقد تأثر بالعادات والتقاليد ونظم التفكير والحياة فى فرنسا إلى أبعد مدى . خرج من مصر إماماً تقياً ورعاً ، وعاد إليها بعقل غير الذى خرج به وبفكر غير الذى نشأ عليه ، وبأخلاق غير التى رُبِّى عليها ، ولا نكون مجاوزين الواقع إذا قلنا إن رفاعة الطهطاوى كان مثل موسى الذى رباه جبريل فصار فرعوناً وخابت آمال مربيه فيه ، وفى موسى جبريل وموسى فرعون يقول الشاعر :

إذا المرء لم يخلق سعيداً تخلفت ظنون مربيه وخاب المؤمـــــل

فموسى الذى رباه جبريل كافـــر وموسى الذى رباه فرعون مرسل

كان قصد محمد على من بعث رفاعة هو أن يعود وقد تزوَّد بالعلم ليخدم وطنه . فإذا به جُنِّد ورُبِّى ليخدم خصوم وطنه ويُحل قومه دار البوار . هذا

ما حدث بالضبط من رفاعة الطهطاوى إمام الأمس ، وابن الصعيد المحافظ . وأرى - الآن - سؤالاً يلح :

وما الذى فعله رفاعة ، والمعروف عنه مما تعلمناه فى دور العلم ، ومما يكتبه عنه الكاتبون فى الصحافة وغيرها أنه رائد من رواد النهضة المصرية الحديثة فى مجال العلم ، بل هو - كما يقال - من رواد عصر التنوير المصرى خلال المائة السنة الأخيرة ؟

والجواب : إن المعروف الشائع عن رفاعة شئ ، وحقيقة رفاعة شئ آخر . وإليك البيان :

● مساوىء رفاعة الطهطاوى :

عاد رفاعة الطهطاوى من بعثته عميلاً ذا خطر لأعداء مصر والإسلام ، وسواء - عندنا - إن كان يدرك أنه يعمل لخدمة أعداء الإسلام . أم أجريت له عملية غسيل المخ فقال ما قال بنيَّة حسنة ، وقصد نبيل ؛ لأن حجم الخسارة فيه فادح على أى الاحتمالين اللذين تقدما . فتعال معى لنقرأ سوياً - وفى أناة - المساوىء « الرفاعية » المؤسفة :

عاد الطهطاوى إلى مصر عام ١٨٣١ وكان قد ألَّف كتاباً فى أثناء إقامته بفرنسا ، وقبل نشر الكتاب عرضه على أستاذ له اسمه « چومار » فأقره أستاذه وشجعه على نشره بمصر . واسم الكتاب كما هو معروف : « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » والكتاب يبدو من عنوانه أن فيه إعجاباً بفرنسا وأنماط الفكر والحياة فيها .

ثم ألَّف بعد عودته إلى مصر كتابين تربويين ، أحدهما : « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » وعنوان الكتاب يلخص موضوعه كما ترى ، إذ يبدو فيه افتتان الطهطاوى بمباهج الآداب العصرية ، والآداب المقصودة هنا هى ما اطلع عليه وتعلَّمه فى باريس . أما الكتاب الآخر فهو : « المرشد الأمين للبنات والبنين » وهو كتاب تعليمى خاطَبَ فيه النشء وشباب

مصر من الجنسين (النوعين) الذكور والإناث ، وهو لتأثره بالسلوك الأوروبى يقدِّم فى عنوان الكتاب البنات على البنين ، على طريقة : « آنساتى سيداتى سادتى » . وهذا غير معهود فى مفهوم أدب الخطاب عند الشرقيين ، ومنحرف عن أدب الخطاب فى القرآن الكريم [1] ، وكان يمكن ألا نقف أمام هذه الملاحظة لو كانت هى وحدها المأخوذة على « رفاعة » ، وإنما هى صورة لتطبيق منهج عام خضع له الطهطاوى فى حياته الجديدة بعد عودته من باريس .

هذه ملاحظات عامة عابرة . أما بعض محتويات هذه الكتب فقد حفلت بالتأثر بالحضارة الأوروبية ، ومن ذلك :

● الوطن بدل الدين :

فى مقدمة كتابه « مناهج الألباب .. » يدعو رفاعة الطهطاوى إلى حب الوطن ، وهذا لا مأخذ لنا عليه من حيث الجملة ، ولكن المأخذ أن رفاعة الطهطاوى يدعو إلى حب الوطن على طريقة الغرب ، وهى أن الوطن يجب أن يكون هو الرابطة الوحيدة بين بنيه ، وليس للدين فى الربط بين الناس وتنمية الأواصر بينهم أثر . فالمصالح « لأبناء الوطن الواحد » - على حد تعبير رفاعة - هى التى تحل محل الروابط الدينية .

* *

● الحدب على أهل الذمة :

أهل الذمة فى الإسلام هم الأقليات غير الإسلامية الذين يعيشون فى بلد إسلامى . والإسلام يوصى بحسن معاملة أهل الذمة وينهى عن ظلمهم ، بل إن صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم يتوعد مَنْ يظلم ذمياً بأنه هو - أى صاحب الدعوة - سيكون خصمه يوم القيامة . أما رفاعة فإنه لم يكن ما يدعو إليه من

---

(١) منهج القرآن هو أن يكتفى بذكر الرجال فيعم الحديث النساء فى الأمور المشتركة بينهما ، أو يذكر الرجال والنساء معاً مقدِّماً للرجال على النساء مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... ﴾ (التوبة : ٧١) وقوله : ﴿ لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى .. ﴾ (آل عمران : ١٩٥) أما تقديم النساء على الرجال فهى عادة الحضارة الغربية التى نهج عليها رفاعة الطهطاوى فى عنوان كتابه المذكور . ثم اقتدى به الآخرون .

الحدب على أهل الذمة نابعاً من توجيهات الإسلام وإن استشهد بكلام لابن حجر فى شناعة ظلم أهل الذمة . وإنما منبع كلام رفاعة هو التأثر بالحضارة الغربية التى لا تقيم للدين وزناً فى معاملاتها وتقديراتها .

والمقصود بأهل الذمة - فى كلام رفاعة - هم نصارى مصر ، وقد عرفنا من قبل إلى أى مدىً كان الاستعمار فى مصر يحاول كسر ميزان القُوَى ليُعلى من شأن غير المسلمين على المسلمين . فدعوة رفاعة وإن لم تكن مجافية لتوجيهات الإسلام فهى تطبيق أمين لتشبعه بالحضارة الغربية .

* *

● الإشادة بالحضارة الفرعونية :

ثم يكشف رفاعة القناع عن مزاجه الحضارى الأوروبى فيشيد بحضارة مصر القديمة ، يعتز بها ويفتخر فى مواضع متفرقة من كتابه ، ويدعو الشباب أن يتخذوا منها قدوة حسنة فيطرحوا الخمول والكسل ويبنوا كما بنى أجدادهم الفراعنة العظام (؟!) .

ويقول للشباب إن مصر فى عهد الفراعنة بلغت أوج مجدها فى العلم والحضارة والمعرفة . وكان مما قال :

« ومنه يُعلم - أى مما قال - أنه كان بمصر إذ ذاك أحكام عادلة وقوانين مرتبة ، وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات - يقصد الأمور الشخصية - وهى نتيجة التمدن العام » .

* *

● وصل الحاضر بالماضى :

ويدعو - بعد ذلك - إلى وصل الحاضر بالماضى الفرعونى فيقول :

« فلا يبعد على مصر فى هذا الوقت أن تستجلب السعادة وتكتسب من القوة

« المِلّية » [1] الحسنى وزيادة ، وتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة ؛ لأن بنية أجسام أهل هذا الزمان هى عين بنية أهل الزمان الذى مضى وفات ، والقرائح واحدة ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة ... » .

* *

● الثناء على ملوك أوروبا :

ويثنى الطهطاوى على ملوك أوروبا ، ويدعو المصريين أن يعاملوا أهل أوروبا كأنهم مواطنون مصريون . يقول الطهطاوى :

« إن أعظم وسائل تقدم الوطن فى المنافع العمومية : رخصة المعاملة مع أهالى الممالك الأجنبية ، واعتبارهم فى الوطن كالأهلية » (؟!) .

وفى هذا الإطار يثنى رفاعة على رمسيس ملك مصر القدم (الفرعونى) أما لماذا استحق رمسيس هذا الثناء ، فإن رفاعة نفسه يجيب فيقول :

« فخر الدولة المصرية فى الأزمان الجاهلية ، ومصباح تاريخها ... الذى اعتنى بتاريخه مؤرخو اليونان ؛ لأنه أول مصرى قربهم إلى بلاده ، واستمال قلوبهم بتوظيفهم برياسة أجناده ، وخالف عوائد أسلافه » (؟!) .

إذن فالثناء على رمسيس كان من أسبابه عند رفاعة توثيق الصلات بين مصر القديمة وبين اليونانيين ، وتوظيفهم فى شئون البلاد ، أى أن رفاعة من فرط إعجابه بالحضارة الغربية - قائمها وحصيدها - يدعو إلى مزج تلك الحضارة بحضارة مصر ، وأن يكون أهل أوروبا مواطنين فى ظل ذلك المزج ؟!

* *

---

(١) المِلّية : نسبة إلى المِلّة بمعنى الدين (؟!!) .

● ترجمة الدستور الفرنسى :

ومما قام به رفاعة ترجمة الدستور الفرنسى الذى أفرزته الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ وهو دستور يقوم على أن المجتمع الفرنسى : مجتمع إرادة لا مجتمع طاعة . يعنى أن الفرد فيه لا يخضع إلا لإرادته الحرة وتقديره هو للأمور ، دون أن يكون لأى قوة خارجية سلطان عليه فى عقيدة أو سلوك ، فلا طاعة عليه لأحد ولا لدين . وبناء على هذه القاعدة الكلية صيغت مواد الدستور الفرنسى ، ورفاعة نفسه قد أدرك هذا المعنى تماماً وصرّح بأن الدستور الفرنسى لا يُستمد من وحى ولا دين ، وأن المجتمع هناك لا صلة له بالمسيحية إلا مجرد الاسم . مع إدراك رفاعة لهذه الحقائق فقد ترجم الدستور الفرنسى فى كتابه « الإبريز » وهو لم يترجمه ليكشف عما فيه من مساوىء ، بل إنه أبدى إعجابه به إلى أبعد الحدود ، وأكثر مواد الدستور تأثيراً فى رفاعة هى المادة الأولى التى تقر الحريات الشخصية وتحميها ، وفى ذلك يقول رفاعة الطهطاوى :

« ولقد كادت هذه القضية أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية - يعنى قضية الحرية - وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم فى الآداب الحضرية ، وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يُطلق عليه عندنا : العدل والإنصاف ؟! وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو التساوى فى الأحكام والقوانين » (!)

وفى نطاق حديثه عن الحرية فى الدستور الفرنسى يقسم الطهطاوى الحرية إلى خمسة أقسام وهى : « حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية » ..

وبعد شرح كل قسم منها يقول :

« فالحرية بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك ، فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عادلة كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى ... » [١] ؟!

* *

(١) الطهطاوى واهم كل الوهم هنا ، فليس المراد بالحرية فى الدستور الفرنسى هو العدل =

● الدعوة إلى تطوير عصرى :

إعجاب الطهطاوى بالحضارة الغربية مَلَكَ عليه سويداء قلبه وسيطر على كل مشاعره . لذلك تراه يدعو إلى تطوير عصرى فى كل شئ حتى فى نظم الحكم والقضاء . وفى ذلك يقول : « إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضية والأحكام على وفق معاملات العصر ، بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة (؟!) المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أمم الأنام » (؟!) .

وكلام الطهطاوى بعد هذا يبدو أنه يبعد كثيراً عن الدين ، ولكنه فى دعوته لخضوع المعاملات الشرعية لروح العصر ، والاقتباس من قوانين الأمم . هذه النواة تضخمت فيما بعد وصار لها عنوان عام بُذِلت تحته جهود كثيرة لما سمى « تطوير الإسلام » وسوف نخصه بفصل قادم إذا شاء الله .

* *

● المدنية الغربية تضاهى الدين :

وينزلق - رفاعة الطهطاوى - إلى أبعد غور فى الافتتان بالمدنية الغربية إلى درجة أنه يساوى بينها وبين فقه الشريعة الإسلامية ومقاصدها الرفيعة . فاسمع إليه إذن :

« ومَن زاول علم أصول الفقه ، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد ، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية ، التى وصلت عقول أهالى باقى الأمم المتمدنة إليها ، وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم ، قَلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التى بنيت عليها الفروع الفقهية ، التى عليها مدار المعاملات :

= والإنصاف ، بل المراد هو إباحية التصرفات وعدم خضوعها لأية قوة خارجية سوى الإرادة الشخصية . ومن مفهوم الحرية فيه حرية التدين ، أى مَن شاء فليتدين ومَن شاء فليتحلل من الدين ، والحرية الشخصية بمقتضاها يفعل الإنسان ما شاء ويقول ما شاء غير خاضع لنظام التحليل والتحريم ، والأسس الأخلاقية (؟!) .

* فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ما يسمى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفِطرية . وهو عبارة عن قواعد عقلية ، تحسيناً وتقبيحاً يؤسسون عليه أحكام المدنية ؟!

* وما نسميه بالعدل والإحسان يعبِّرون عنه بالحرية والتسوية ؟!

* وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته ... يسمونه محبة الوطن » ؟ (١) .

أعود فأذكِّر القارىء بما كتبناه فى بداية هذا الفصل عن البدائل التى يلوح بها خصوم الإسلام لتحل محل الإسلام . لأن فى كلام رفاعة هنا تطبيقاً دقيقاً لها . فالقوانين الطبيعية أو النواميس الفِطرية مُعَدَّة لتحل محل علم أصول الفقه الإسلامى ؟!

والحرية والتسوية مُعَدَّتان لتحلا محل العدل والإحسان فى الشريعة الإسلامية ؟!

ومحبة الوطن والاستشهاد فى سبيله مُعَدَّة لتحل محل الدين كله والموت فى سبيله ؟!

أفتطلب منا دليلاً - عزيزى القارىء - فوق هذا الدليل على صواب ما نقول ؟

ثم لمن يوجه هذا الكلام « الخواجة » رفاعة ؟! ألم يوجهه إلى النشء وإلى شباب مصر خاصة ، والإسلام عامة ؛ لأن الكتاب الذى يحمل هذا الكلام هو : « المرشد الأمين للبنات والبنين » ؟! ولعل القارىء يتساءل معى :

أين الإيثار ، وأين الأمانة فى فما يقول رفاعة الطهطاوى أو « المستغرب » رفاعة الطهطاوى إن أردنا الدقة فى الوصف والتقدير ؟!

* *

(١) المرشد الأمين للبنات والبنين ص ١٢٤ - ١٢٥

● لويز الثامن عشر والكتاب والسُنَّة :

يعود رفاعة فيسجل إعجابه بالتشريع الفرنسى العلمانى ، ويرفعه إلى مستوى التشريعات التى فى كتاب اللّه وسُنَّة رسوله ؛ بعد أن ضاهاه من قبل بعلم أصول الفقه ، يقول :

« والقانون الذى يمشى عليه الفرنساوية الآن - يعنى بعد الثورة الفرنسية - ويتخذونه أساساً لسياستهم ، هو القانون الذى وضعه لهم ملكهم المسمى : لويز الثامن عشر (لويس) ولا يزال متبعاً عندهم مرضياً لهم . وفيه أمور لا ينكر ذو العقول أنها من باب العدل . وإن كان غالب ما فيه ليس من كتاب اللّه ولا من سُنَّة رسوله ؟! لتعرف كيف حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » [1] .

إذن فإن رفاعة يرى فى تشريعات لويس الثامن عشر ما ليس فى كتاب اللّه وسُنَّة رسوله المعصوم من أحكام هى عين العدل والإنصافَ مع خلو القرآن العظيم والأحاديث المطهرة منها ؟!

وبهذا يكون رفاعة من الرواد الذين مهَّدوا للقوانين الوضعية فى مصر ، والعمل بها . ومن الرواد الذى كانوا جسراً عبرت عليه الحضارة الأوروبية الأجواء والبحار لتستقر فى بلاد الإسلام ، ويزيد هذا وضوحاً دعوته علماء المسلمين إلى إعادة النظر فى الأحكام الشرعية لتناسب الزمان والمكان فيقول :

« إن علماء المسلمين مكلَّفون بمراعاة أحوال الوقت فى تنزيل الأحكام » (؟!) وقد تبنى هذه الدعوة من بعده كثيرون ممن ينتمون إلى بعض الأيديولوچيات المعادية للإسلام ، وغيرهم من بسطاء الفكر الدينى فى شئون المرأة وغيرها .

وأعجب « الخواجة » أو « المستغرب » رفاعة بسلوك المرأة الفرنسية والحقوق المكفولة لها فى القوانين هناك ، ومنها : تقييد الطلاق بجريمة الزنا وعدم

---

(١) الإبريز ص . ١٤

الاعتداد به إلا إذا صدر به حكم من القضاء ، وفيه يقول : إنه « لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بإقامة دعوى الزنا » [١] .

وينفى رفاعة أن يكون التبرج والسفور والاختلاط بين الرجال والنساء والخلوات ، ينفى أن تكون هذه العادات المنتشرة فى فرنسا سبباً من أسباب الفساد ، فيقول : « إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة » (؟!) [٢] .

* *

● المراقصة :

ويدافع « الخواجة » رفاعة عن مراقصة الرجال للنساء فى فرنسا ويصفها بالطُهْر والعفاف فيقول : « إن الرقص عندهم فن من الفنون ، وقد أشار إليه المسعودى فى تاريخه المسمى « مروج الذهب » فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء ... وما كل راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء ... ويتعلق بالرقص فى فرنسا كل الناس ، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة [٣] لا الفسق ؛ فذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء (؟!) بخلاف الرقص فى أرض مصر فإنه من خصوصيات النساء ؛ لأنه لتهييج الشهوات . أما فى باريس فإنه نط مخصوص لا يشم منه رائحة العهر أبداً ، كل إنسان يعزم امرأة يرقص معها فإذا فرغ عزمها آخر ... » (؟!) [٤] .

* *

---

(١) الإبريز ص ١٢٢ (٢) المصدر السابق ص ٢٠٥

(٣) الشلبنة : الفتوة . (٤) الإبريز ص ١٦٨

● وصف المسارح :

حتى ما فى باريس من مسارح وملاه فهو شئ طريف ظريف عند رفاعة الطهطاوى ، وفى اختصار شديد نقول : إن الطهطاوى مفتون بما تقدمه المسارح الباريسية لدرجة أنه يقول فيها : « وبالجملة فالتياترو عندهم - يعنى المسرح - كالمدرسة العامة : يتعلم فيها العالِم والجاهل » (؟!) .

والخلاصة :

نكتفى بهذا القدر من فكر رفاعة الطهطاوى . ونحن نميل إلى حسن النية فيما قال ، ولا نتحمس للقول بأنه قصد الإساءة قصداً إلى دينه أو وطنه . ولكن الذى نجزم به أن رفاعة الطهطاوى كان من المعابر للحضارة الغربية إلى بلاد الإسلام ، وأنه وقع تحت تأثيرها ولم يستطع الفكاك منها ، وقد استطاع أساتذته الأوروبيون أن يسخِّروه من حيث لا يدرى لخدمة مخططاتهم ، وهو يحسب أنه يُحسن عملاً ، وقد خابت آمال محمد على فيه كما خابت آمال جبريل عليه السلام حين ربى « موسى السامرى » ليكون عبداً صالحاً ، فما كان منه إلا دعوة بنى إسرائيل لعبادة العجل إلهاً من دون اللّه . وفوق ذلك فإن سيرة رفاعة الطهطاوى مثل صالح لمساوىء الابتعاث إلى الغرب . تعلم المفيد والضار ، ولكنه غلّب جانب الأضرار على جانب الإفادة .. درى أو لم يدر .. ؟

* * *